انفرطت مسبحة العمر, وتسرسبت حبات السنين حبة حبة, تقعقع على أرضية حياتها الصماء..

وبالمقلتين يلتمع دمع حبيس, ولكنها تسيطر..

هكذا هي, المصاب كبير والخيبة بلا مثيل, ولكنها تسيطر..

وها هي تخطو على ما تبقى من طريق الأيام, يحدوها القيل والقال, وأمور ثقلت على كاهلها وأرهقتها, ولكنها مذمومة الشفتين, تكتم ولا تبوح.. والعينين المشعتين بريقا فيما مضى ثابتتين جامدتين الآن, لم يعد شيء قادر على جعلهما ترتعشان تلك الرعشة العفوية الساحرة المفعمة بالحياة..

وتعيش.. تتناول الحياة كما حبات علقم.. وتتناولها الأيام كما وحش قميء بلا ذرة شفقة..

ولم يعد شيء يهم..

في بيتها المنطوي على وحدتها منذ عقود ثلاث, تعتكف صومعتها التي باتت تلتزمها بشكل مستديم, بعيدا عن صخب زوج حطم قلبها, وضجيج حياة لم تعد تطيقها..

حجرة غريبة مكتظة بالكتب, تمكث فيها ولا تفارقها طوال يوم محتشد بكتائب متراصة من جُند الثواني, وقادة الدقائق, وألوية الساعات.. فيها اعتادت متابعة سير المعركة الرتيب, حيث الجنود والقادة والألوية يتساقطون تباعا في النزال الخاسر, ذو المصير المحتوم بالفناء..

وربما نامت ليلها على الأريكة المتاخمة للنافذة الغربية, ترنو إلى القمر بنظرة منطفئة ذابلة, فيما يحوم بين تلال السحب, وزخم النجوم, يتابع انضباط السماء..

وتلتف على نفسها.. قوقعة تلتمس السكينة.. تغمض عينيها, وتروح في سبات من مجهود القراءة..

تقرأ بلا انقطاع.. يرقة نهمة, تلتهم شرنقة أبدية الجدار, فلا هي تنطلق إلى الحرية, ولا هي يتملكها اليأس؛ فتكف..

وفي الحُلم يأتيها "الفارس", جميلا ممشوقا على حصانه البديع شاهق البياض..

يمد يدا فتية, ويهمس بصوت أسطوري, بتلك الجملة التي اقتلعتها يوما من أرضها, واعتصرتها في بوتقة سحره:

"عما تبحثين في الكتب؟!..عن السعادة؟!.."

يومها, وهي ابنة العشرين, خلعت نظارتها الطبية, ونَحت جانبا كتاب "البؤساء", وهمس متآمر يتلاعب بنفسها, يشجعها أن تقتفي آثر الفارس الجميل..

همست برهف من دق قلبها للمرة الأولى:

"أنت السعادة!!.."

تضحك اليوم بملء فيها.. تضحك حد البكاء.. حد الهستيريا الملتاعة..

وتهمس لنفسها:

"لو قرأت ما انزلقت.."

الآن تشيح عنه, سواء آتاها في الحُلم؛ فارسا جميلا على حصانه شاهق البياض, أو طرق صومعتها بعينيه المرهقتين من السهر والمجون؛ يستطلع حال ركام نصره المظفر..

الآن تتشبث بالكتاب كطوق نجاة, كتعويذه تحميها من شر مستطير, فيما تلمح طيف اعتذار يتماوج على محياه, وقد دب فيه الجفاف, وشيب كثيف لطخ رأسه وفوديه, وعينين فقدتا ذاك السحر..

تعلم أن لا شيء سيوقفه, رغم الآسف البادي المفتعل.. مهنة قنص القلوب في دمه, وحبائل الشيطان يتدارسها منه الشيطان, وضحاياه يتساقطن مثل جثث خلفتها حرب جاهلية..

في مصاب اكتشافها الأول, مادت الأرض بها, وسقطت تتلوى وتنتحب لشهور, تنعي حبيبا قد ذهب بلا رجعة, بيد أنها اعتادت مع التكرار.. اعتادت حد اللامبالاة..

فليفعل ما يحلو له, ولتفعل ما يحلو لها, لن تترك صومعتها حتى المغادرة..

بائع اللبن لن يجيء

من عادة أمي الاستيقاظ مبكرا, قبيل الفجر بنحو الساعة, تصلي ركعتين وتستمع لقرآن الإذاعة, حتى موعد الآذان.. أستيقظ أنا في الخامسة, لألحق بالصلاة, بالكاد قبيل الشروق..

حجرتها ما زالت تغط في سبات, هذا ليس من عادتها!!.. العمر الذي تجاوز الستين يثقل عليها أحيانا..

توجهت إلى الثلاجة, لأخرج اللبن, وأضعه على الموقد.. الزجاجة فارغة.. تذكرت؛ هذا البائع لم يجيء بالأمس؛ ما يمنعه أن يُحضر اللبن لأمي؟!.. أمي تحب شربه على الريق, تحبه دافئا..

بعدما تستيقظ من غفوتها الطارئة؛ ماذا سأُقدم لها؟!..

أتلمس الطريق إلى الحجرة, أرهف السمع, لا يطرق أذني شيء, أدقق النظر من فُرجة الباب, الغطاء متكوم عليها, ما زالت رهينة السبات, ربما يناجيها أبي, من مكانه هناك بالسماء.. أو أنها تعود القهقري.. القهقري لزمن سحيق, وقت أن كانت محض طفلة, وحضرها "خراط البنات".. وقتئذ؛ استرعت انتباه أبي, وقف مدهوشا من الطفلة التي تحولت بين ليلة وضحاها لغادة حسناء..

قالت لي: أبوكِ كان في العشرين, كان فتيا, وكان يبحث عن عروس..

وقالت: أبوكِ رشي المأذون؛ ليتغاضى عن صغر العروس, ويتمم الزيجة..

تقول أيضا أنني أشبهها كثيرا..

أمي جميلة.. لها صورة قديمة, تغرد بالجمال.. لو أنني أشبهها حقا, كما تقول, ما تخطيت الأربعين بلا رفيق.. أمي هي البديل عن الزوج الذي لم يحضر, والطفل الذي بالتبعية لن يجيء..

بائع اللبن هو أيضا لن يجيء.. بالأمس نجح أبي في مأربه.. أبي دفع برشوة جديدة, وأخذها معه إلى السماء..